طرائف وقصص

فصل سالافان

للكاتب الفرنسي المعاصر جورج دوهاميل

للأستاذ لبيب السعيد

لست أنقم من « السيد سورو » أي شيء . ولئن كنت غير راض ألبتة عن فقدي مركزي ، وهو ما علمت مركز طيب ، فإنه لم تعلق بنفسي موجدة على « السيد سورو » . أما إنه لمحق . وما أدري ماذا كنت أفعل لو كنت مكانه . على أني لسوء حظي أفهم كثيرا من الأشياء

ويقتضيني الواجب أن أقول إن « السيد سورو » أبى أن يفهم ، وكان ينبغي أن أبسط له إيضاحا ، ولكني — على حسب تفكيري الممن — أحسنت صنعا إذ لم أشرح له شيئا . هذا إلى أن « السيد سورو » لم يتح لي وقتا أسترد فيه حواسي ، وأصلح فيه موقفي . لقد بدا جادا ، وبعبارة أخرى : لقد بدا فظا ، بل متوحشا . ولا علينا من هذا ، فما وقع في نفسي أن أحقد عليه

فأما عن « السيد يعقوب » فأمره غير الأمر ، فلقد كان يسعه أن يقدم شيئا أفيد منه ، ذلك أني أقمت معه خمس سنين كان يراني طوالها وأنا أعمل مصبحا وممسيا ، وكان يعلم أني لست رجلا غير عادي . نعم ، فلقد بلاني ، ولو أن هذا — بعد التفكير — يعني أنه لم يحط بي خبرا أبدا . ومهما يكن من شيء فقد كان يملك أن يقول كلمة ... كلمة واحدة ، ولكنه لم يقلها . ولا والله ما ألومه ؛ فإن له لزوجة وأولادا ، وإن له سمعة لا يمكنه التهاون فيها . على أن الحق كل الحق أني لو أذعت ما أعلمه عن السيد يعقوب ، لقلت شيئا ... ولكن ، لنم هادئ البال فلن أقول شيئا

إنه خذلني ، فلم ينصرني ولم ينقذني ، ومع هذا فصدري ليس به غل له هو الآخر . لقد أحاطت بي مجموعة ملابسات جد ناصبة ، ولكن لنذهب الآن إلى أني وحدي أزر كل الوزر ، فالدنيا هي ما قد علمت وما أبرئ نفسي ، بل أقر أني ارتكبت خطيئة ، وبيان هذا بعد حين

لقد تقضى على هذه المغامرة زمن متطاول ، وما كنت لأتكلم عنها لو لم توقظ في ذكريات مؤلمة . ولقد وقعت لي منذ ذلك الحين وقائع تنسيني بعض التفاصيل ، ولا بد لي أن أسترعي نظرك إلى أني في مدى خمس سنين لم ألق « السيد سورو » غير ثلاث مرات ، وهذا قليل . والسبب أن مؤسسة « سوك دسورو » عظيمة الشأن ، وليس في إمكان سادتها أن يتصلوا بمستخدميها الألفين الذين يشتغلون لديهم . أما في صدد اختصاص عملي فلم تكن له صلة بالإدارة

وذات صباح ، أخذ التليفون يصيح ، ولست أدري أتثيرك النواقيس والأجراس الكهربية والأجهزة الأخرى التي من هذا النوع الجهنمي ، فأما أنا فقد وطنت نفسي لها ، وإن كان حسبي لإشقاء حياتي أن يوجد جرس كهربي حيث أكون . ولهذا السبب ولا شيء غير هذا السبب أجدني في بعض اللحظات أهني نفسي على أني تركت العمل في المكاتب . إن صوت الجرس ليس كالأصوات ، وإنما هو مثقاب يخترق الجسم فجأة ، ويودي بالأفكار ، ويقف كل شيء حتى دقات القلب . وذلك مالا قبل لإنسان أن يألفه

هذا جرس التليفون يدق ، فكل من في المكتب يرعبه صممه ولو لم يظهر عليه الاهتمام . ويكف الصياح ، وينتظر الجميع . ولست أشد من غيري عصبية ، ولكن هذا الانتظار هو الآخر عذاب ، فكل يرتقب ليعرف

أوراء الصيحة صيحة أخرى . فاذا كانت واحدة فالطلوب هو « السيد يعقوب » ، وإن كانتا اثنتين فهما على « بفلج» السويسرى ، فأما أنا فكانت تناديني ثلاث صيحات . ومنذ تركت المكتب وهذه الثلاث تنادى «أودن» الذى كان على عهدى يجيب على أربع .

و«أودن» هو الآخر ليس عصبيا ، وهو منذ الصيحة الأولى يأخذ فى أكل أنامله من غير أن يبدو عليها شيء وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح بـ «دوحس» فى ظفره .

وفى ذلك اليوم ، بعث الجرس رنة واحدة ليس غير ، رنة واحدة طويلة مستقيمة مثيرة بقوة تأكيدها .

وبرز «السيد يعقوب» من وراء حاجزه النصفى ، برز من هذا المخبأ الذى يلزمه كما يلزم حصان السباق صندوقه وأمسك «يعقوب» بسماعة التليفون ، وكما هى عادته استند إلى الجدار ملصقا به رأسه الذى خلف شعره بتوالى الأيام بقعة دهنية على الحائط .

ويبدأ الحديث ، وأنصت إلى بعضه ، وهو دائما يثير العجب ، فثمة رجل طيب يتحدث إلى اللاوجود ، ويبتسم له ، ويلقى إليه بالملق . رجل ينظر فجأة وبامعان إلى الطلاء البنى على الحائط كأنما يبصر شيئا عجبا .

ومع هذا فإن ذلك اليوم لم يبتسم « السيد يعقوب» فى حديثه ، ولم يتملق محدثه . ومنذ الكلمات الأولى كانت تتخايل عليه أمارات القلق ، وقد دبت الحمرة إلى وجهه ، وما لبث أن رمى ببصره إلى أسفل ، متطلعا إلى المدفأة التى كانت قابعة فى ركنها كأنها كلب غاضب .

أما أنا فكنت أبرى قلما ، وما بى حاجة إلى أن أقول لك . إنى كنت أكسر رصاصة القلم ما بين ثانية وأخرى . وكان يتناهى إلى صوت « السيد يعقوب » وهو يتمتم : « ولكن يا سيدى ... ولكن يا سيدى » وكنت أقول فى نفسى : « لئن لم ينته من تكرار قوله : « ولكن يا سيدى ... » لألطمنه لطمة يدوى صوتها « بان .. » ولأدفعن برأسه إلى الجدار »

غير أنى كثيرا ما أحدث نفسى بأشياء من هذا الطراز ولكنى فى الحق رجل رزين الحصاة ، ولست أستجيب أبدا لشيء مما أحدث به النفس . وإنك لتعلم علم اليقين أنى ما كنت لألطمه

وقد كنت لا أزال أكسر رصاص قلمى ، وأوسخ أطراف أصابعى . وكان « السيد يعقوب » يذكرنى بهؤلاء الروحانيين الذين يدعون الاتصال بالأشباح ، مستدلين بهذا الاتصال على أن للأشباح نوعا من الوجود . وأثناء الصمت الغالب كان ينبعث أزيز متهدج كأنما يتهادى من نهاية العالم . وكنت أتبين فى هذا الأزيز رويدا رويدا جلبة صوت متقطع

وترك السيد يعقوب الجهاز بنتة ، وظل يتحسس حلقة التليفون أكثر من عشر مرات حتى تمكن من وضع السماعة ، وكنت بلغت من الغضب غايته ، ولكن ذلك ظل خافيا قطعا وانتهيت إلى صنع طرف جيد لقلمى ، ومسحت أصابعى فى أسفل بنطلونى حيث لا تظهر علامات الرصاص

إنقلب « السيد يعقوب » إلى صندوقه ، وفتح بعض الأضابير ، وأمسك ببعض الأوراق ، ثم صاح فجأة :

— سالافان ... تعالى لحظة

كنت متوقعا ذلك ، فنهضت مطيعا ، ووجدت السيد يعقوب ينزع شعرات من أنفه ، وهذا عنده دليل قوى على القلق ، وقال لى :

— دونك هذه الكراسة ، فاحملها بنفسك إلى « السيد سورو » ، ستلقاه فى مكتبه بالإدارة ، فأبلغه أنى متوعك

وأمسك عن الكلام ، ثم صرف بصره تلقاء النافذة ، وغمز بعينه لأنه انتزع شعرة طويلة من أنفه ، ووضع الشعرة على ورقة النشاف ، وأضاف وهو يحس رغبة شديدة فى العطاس ، وهى رغبة جعلت عينيه تمتلآن بالدمع :

— إمض يا سلافان ؛ أسرع

ولبلوغ مكتب « السيد سورو » ، لا بد من اجتياز عدة أجنحة من المبنى ، وفى الصيف عندما تكون النوافذ مفتحة ، وعندما تتشاءب الأبواب متأرجحة أمام النسيم ، يلحظ الإنسان أقساما مختلفة ، بعضها فوق بعض ، والرجال فيها يعملون

وفى الردهة المؤدية إلى مكتب « السيد سورو » يقف أحد السعاة فى بزته الرسمية وجوربه الأبيض ، وقد سألنى عن مهمتى ، وأدخلنى حجرة فسيحة وهو يخاطبنى بقوله : « إنك منتظر »

عرفت توا مكتب «السيد سورو» الذى لم أكن رأيته إلا مرة واحدة ، ذلك أن رؤيتى للسيد سورو فى المرتين السالفتين كانت فى قسمنا

وقد رأيت أستارا من القماش الأزرق ، ولوحات بلون النبيذ ، وطالعنى فى أحد أركان الغرفة رسم قطاعى للآلة الدارسة « سوك دسورو » والأوسمة التى ظفرت بها فى المعارض

أما هو فقد كان هناك ، ولعلك تعرفه ، وتعرف أنه لا يزال يحتفظ بجانب من حيا شبابه ، وأنه فارع القامة ، حليق شعر الوجه ، وله شارب كأنه الفرجون ، وذقن حادة التدبب ، وشعر كله تقريبا بلون الرماد ، وتحت جبهته منظار دائم الارتعاش لأنه لا يضم غير قطعة صغيرة من الجلد

ونظر إلى « السيد سورو » طولا وعرضا ، وقال لى فى اختصار

— امن قسم التحرير انت؟ وماذا يفعل السيد يعقوب؟

— إنه متعب

— آه ! هات !

وظللت واقفا فى مواجهة المكتب الكبير الامبراطورى الطراز ، وكنت لا أعرف أيهما أحرى بى أن أضم قدمى وأقف معتدلا أو أن آخذ وضع الجندى فى حركة الراحة

ويجب أن أعترف لك أنى قطعت العمر فى مؤسسة « سوك وسورد » متوحدا منفردا ، وكنت لا أميل إلى المناسبات التى تنأى بى عن عملى ومألوفى ، وكان اختصاصى هو تصحيح النصوص لا الثول بين واحد من أمراء الصناعة

ولذلك كنت فى هذه الساعة ألعن « السيد يعقوب » وطفقت أدير له فى ذهنى بعض العبارات التى كنت أتفنن فى صوغها والتى لم أنبس بها حتى النهاية . وقد كنت أحمل هم جسمانى الذى لم أكن أعرف ماذا أفعل به ، فكنت أحس بعض عضلاتى تتقلص فى وضع يضايق باقى العضلات ، وكنت أشعر شعورا غريبا بأن شكلى يؤلف أضحوكة ضخمة ، ليس بوجهى فحسب ، ولكن أيضا بصدرى ، ثم بأعضائى ، ثم أخيرا بجسدى كله

ومن توفيق الجد أن « السيد سورو » لم يلحظنى ، وكان يقلب فى الكراسة التى قدمتها إليه ، وكان يبدو أنه يعانى غضبا ثقيلا استطاع أن يكظمه

وفجأة ، وضع سبابته على الصفحة ، وقال من غير أن يرفع أنفه :

— خط ردىء لا يكاد يقرأ . ما هذه الكلمة ؟

فتقدمت آليا أربع خطوات إلى الأمام ، وانحنيت ، وقرأت فى غير حبسة وبصوت جهير . «خير أكثر مما يلزم». وقد وضعتنى حركتى هذه إلى جوار السيد سورو ، وفى متناول الذراع اليسرى لمقعده

هنالك فحسب ، لاحظت أذنه اليسرى ، وإنى لأصدقك حين أقرر لك أن الأمر لم يعد أن يكون عاديا ؛ فهذه الأذن كانت أذن رجل من النوع الدموى قليلا ، أذنا كبيرة بها شعرات ، وتخللها بقع بلون النبيذ . ولست أعرف على الحقيقة ماذا حملنى على التطلع فى اهتمام بالغ إلى هذا الركن من إهاب سورو . ولقد تضخم اهتمامى هذا حتى صار بعد هنيهة أمرا شاقا ، وكان هذا الجزء أقرب شىء منى ، ولكنه بدا لى أبعد شىء عنى وأغرب شىء لى .

وأعملت فكرى قائلا فى نفسى : ذاك جلد آدمى ، وإن من الناس من يعتبرونه شيئا طبعيا جدا ، وإن منهم من يعتبر لمسه أمرا مألوفا

وتتابعت على خاطرى صور شتى ، ووجدتنى عفو الساعة أحرك ذراعى اليمنى قليلا تتقدمه سبابتى ، وأدركت حالا أن بى نزعة إلى وضع إصبعى على أذن « السيد سورو »

وفى تلك اللحظة زمجر الرجل الضخم ، وغير رأسه من وضعه ، فعرانى لذلك غضب ، وعرتنى فى الوقت نفسه راحة ؛ بيد أنه عاد إلى القراءة ، فشعرت بذراعى تعاود التحرك فى رفق

كنت بادئ الرأى خجلان أنكر على يدى ماتشتهيه من لمس أذن السيد سورو ، ولكنى شعرت تدريجا أن عقلى يطيب لهذه الحركة ويقرها . ولأسباب كثيرة كانت تبدو لى غامضة مبهمة . كان لزاما على أن ألمس أذن «السيد سورو » لأثبت لنفسى أن هذه الأذن ليست شيئا ممنوعا أو منعدم الوجود أو خياليا ، ولأننى أنها ليست لحم آدمى مثل أذنى أنا نفسى

وبغتة ، مددت ذراعى بطولها ، ووضعت سبابتى بمنتهى اللطف والرقة ... وضعتها حيث أحببت . فوق لولبة الأذن بقليل ، على هذا الجزء من الجلد الأحمر بلون الآجر

سيدى ! لقد سيم « دميان » العذاب لأنه صوب مديته إلى الملك لويس الخامس عشر ، وإن تعذيب رجل لظلم مخز . على أن « دميان » نال الملك ببعض الأذى والسماءة ، فأما أنا فأقولها لك أكيدة إنى لم أضر « السيد سورو » شيئا ، ولم تختلج هامة نفسى بأن أنعمده بأى شر . وقد تقول لى إنهم لم يعذبونى ، والصدق ما تقول إلى حدما

لم أكد ألمس أذن « السيد سورو » بطرف سبابتى بكل رفق حتى كان هو وكرسيه يثبان إلى الخلف ، ولا بد أنى كنت وقتها شاحب اللون قليلا ، فأما هو فقد استحال لونه إلى الزرقة كما يقع لمرضى فقر الدم حينما يشحب لونهم ثم أقبل من فوره على دوجه فأخرج منه مسدسا

تسمرت ووجمت ، فقد شعرت أنى جئت شيئا نكرا وكنت كليلا لا يضئ لى عقل ولا يستقيم لى رأى

ووضع « السيد سورو » المسدس على النضد بيد ترتعش فى قوة جعلته يحدث صوتا كصوت اصطكاك الأسنان ، وصرخ « السيد سورو » .... صرخ ...

لست أعرف على وجه الدقة ماذا جرى ، فقد تلقانى عشرة من فراشى المكتب ، وجرونى إلى غرفة مجاورة ، وهناك نزعوا عنى ثيابى ، وفتشونى ، ثم ما لبثت أن استعدت ثيابى ، وجاءنى رجل بقبعتى ، وأنهى إلى أنهم يرغبون فى كتمان الأمر على أن أخرج من المؤسسة فورا وأوصلونى إلى الباب

وفى الغداة ، حمل إلى « أودن » ما كنت أستعمله فى مكتبى من أداة وأشياء خاصة

تلك هى القصة الحزينة التى أكره أن أقصها لأنى لا أستطيع ذلك دون أن يساورنى ضيق هو فوق التعبير

لبيب السعيد

مختارات من الأدب الفرنسى

شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها